مدن المشرق الإسلامي من خلال كتابات الرّحالة الأندلسيين في القرنين السابع والثامن الهجريين

د. سي عمر عبد القادر*

الملخص:

تناولت هذه الدراسة التعريف بمدن المشرق الإسلامي من خلال كتابات الرحالة الأندلسيين في القرنين السابع و الثامن الهجريين،وقد غلب على الرحلات الأندلسية في هذه الفترة الصفة الدينية والعلمية ،وقد اهتم هؤلاء بتدوين رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها حيث وصفوا المسالك والطرق والمزارات والأضرحة والأحداث التي صادفوها والعلماء الذين اخذوا عنهم ومن تلك الأماكن التي وصفوها مدن المشرق الإسلامي في الحجاز ومصر وبلاد الشام والعراق ومن ابرز الرحالة الأندلسيين الذين وصفوا مدن المشرق أبو الحسن بن جبير وأبو عبد الله العبدري وأبو البقاء البلوي و عبد الرحمان بن خلدون و أبو الحسن القلصادي ،وقد اعتبرت هذه الكتابات من اهم المصادر التاريخية التي يمكن إن نعول عليها و التي نجحت في تقديم صورة واضحة عن مدن بلاد المشرق الإسلامي.

Abstract:

This study addresses the descriptions of the cities of the eastern Islamic world in the writings of Andalūsī travelers of the seventh and eight centuries A.H. An intellectual and religious tone pervades in these Andalusian travel accounts. The authors composed stand-alone works in which they described the routes, roads, shrines, tombs and events that they encountered as well as the scholars

*أستاذ باحث مختص في التاريخ الوسيط الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، جامعة تلمسان ، الجزائر.

whom they studied under. They wrote accounts of cities in the Ḥijāz, Egypt, Bilād al-Shām, and Iraq. Among the most prominent of the Andalusian travelers who described the cities of the Islamic east were Abū al-Ḥasan b. Jubayr, Abūʿ Abdallāh al-ʿAbdarī, Abū al-Baqāʾ al-Balawī, ʿAbd al-Raḥmān b. Khāldūn and Abū al-Ḥasan al-Qalaṣādī. These works are considered to be some of the most important historical sources that we can depend upon because they present a clear picture of conditions in the cities of the Islamic Oreant.

مقدمة:

أخذت الإنسان الرحلة وشغف بها منذ أن عرف الحياة على الأرض وارتبط بها، وحظي أدب الرحلات باهتمام كبير قديماً وحديثاً، عرفه العرب وبلدان الشرق ثم انتشر عند الغرب بعد اكتشافاتهم خارج القارة الأوروبية. وتعتبر الرحلات أو قراءتها من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية لِكشف المجهول والوصول إلى الغاية، والمعرفة والإحاطة بالعادات والتقاليد، والتعريف بأوصاف البلدان الطبيعية ومناخاتها، كما أنها مصدر للمؤرخ والجغرافي والاجتماعي، وفيها قدوة وأسوة لمن يريد أن يعتبر ويتأمل، فقد فطر ألله الإنسان على حب الاستطلاع واكتشاف المجهول[1]. وأدب الرحلات، إن صح التعبير، عند العرب المسلمين غني بتراثه منذ أكثر من ألف سنة مضت، بل وتعود بداياته التوثيقية إلى مطلع القرن الثاني الهجري. فعندما توسعت الفتوحات الإسلامية وأصبحت حدود الدولة الإسلامية تمتد من الهند والصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى الصحراء الإفريقية الكبرى جنوباً. ووجد الفاتحون أمامهم آفاق عوالم جديدة تزاحمت فيها الغرائب والعجائب واختلفت فيها الألسن وتلونت المشاهد الطبيعية وتغايرت الأقوام والشعوب بعد أن كانوا حبيسي جزيرتهم وصحرائهم، وأثارت

هذه العوالم في نفوس الفاتحين مكامن الاطلاع وحب المعرفة، وسرعان ما انطلقت جموع الرحالين والمستكشفين والعلماء والتجار نحو هذه الآفاق، وخلال بضعة قرون من السنين تراكمت نصوص هذا الأدب وتكونت في نهاية العصور الإسلامية الوسيطة مكتبة أدبية جغرافية عظيمة تعتبر في أيامنا واحدة من أندر وأثمن كنوز تراثنا العربي الإسلامي.

وشهد مفهوم الرحلة تطورا في آلياته واتجاهاته فيما بعد، ولم تعد المسالة تأخذ بعداً استكشافياً في العالم الخارجي فحسب، وإنما على العكس، حينما أخذت الرحلات تنطلق من أطراف العالم الإسلامي إلى القلب، وغدت من الأوعية الرئيسة للتواصل وللتلاقح الحضاري بين المركز والمحيط، وذلك لان رقعة الدولة العربية الإسلامية اتسعت في فضاءات مشارقية ومغاربية بشكل متسارع. ومع هذا الاتساع الجغرافي أصبحت مسالة الرحلة إلى المركز متواصلة، حجا وعمرة وزيارة واستلهاماً وطلبا للرزق، فضلا عن طلب العلم والمعرفة. ومن خلال ما سبق، علينا أن نتذكر، بان الرحلة، التي اختلف على تصنيفها الباحثون، هي مزيجا يشمل مجالات الجغرافية، التاريخ، الاقتصاد، السياسة والأدب، وعليه لا يمكن تصنيفها في جانب على حساب الجانب الآخر، فكل ناحية تنظر الإخراج للإفادة منها، وكثيرا ما أظهرت الرحلات أسماء علماء لم تكن لتظهر لولا هي[2]. ومن خلال هذا البحث سنعمل على تسليط الضوء على جانب من جوانب الموضوع، وأعني: "مدن المشرق الإسلامي من خلال كتابات الرّحالة الأندلسيين في القرنين السابع والثامن الهجريين"، ومن خلاله نحاول معرفة طبيعة التأثير والتأثر الذي كانت عليه العلاقات ما بين المشرق والمغرب الإسلاميين.

أولا: دوافع الرحلات الأندلسية إلى المشرق:

ومن الطبيعي، ان تكون هناك دوافع حركت الأندلسيين، مثل غيرهم من المسلمين، للسفر والترحال نحو المشرق الإسلامي. وقد اختلفت دوافع الرّحلة باختلاف الأهداف التي من اجلها تمت. ومن ابرز تلك الدوافع، نذكر:

1-العامل الديني:

ويعتبر العامل الديني من أكثر الدوافع تحريكاً للأندلسيين لكي ينشطوا في الرحلة إلى المشرق الإسلامي. إذ كانت مسالة رغبة الأندلسيين في زيارة الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج تشكل حافزا مهما للانطلاق والعمل من اجل الوصول إلى هناك[3]. وجاء ذلك الاهتمام تجسيدا لقوله تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)[4] ، وقوله تعالى: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)[5]. ولم تكن الرّحلة الدينية مقتصرة على الحجاز فقط بل هناك من شد الرحال إلى الأماكن المقدسة في بلاد الشام، حيث كانوا يقصدون دمشق والخليل والقدس الشريف، التي لها مكانة عظيمة في نفوس الأندلسيين، فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين. والى جانب ما ذكر، يدخل في هذا الإطار أيضا، الرّحلة الصوفية ويكون هدف هذه الرّحلة هو الاتصال بالشيوخ المتصوفة من اجل التبرك بلقائهم والفوز بدعواتهم الصالحة[6]. وتتجلى قيمة العامل الديني في تحفيز الرحالة الأندلسيين على السفر والوصول إلى المشرق الإسلامي حينما ينتفض وجدانهم إجلالاً وتقديرا، وأشير هنا إلى ما قاله ابن جبير وهو يصف رحلته إلى الحجاز، بالقول[7]:

إليكَ إليكَ نبي الهدى ركبت البحارَ وجبت القفارا
وفارقتُ أهلي ولامنة ورُب كلام يجرُّ اعتذارا

2- الدافع العلمي:

شكل الدافع العلمي عاملا أساسياً عند عددا من الرحالة الأندلسيين في السفر والترحال، لاسيما وإن الدين الإسلامي قد أكد على هذا الجانب ورغّب فيه، إذ حث على الخروج لطلب العلم لقوله تعالى:(فَلَوْلا نَفَر مِن كُلِ فِرقَة مِنْهُم طَائِفَة لِيتَفَقّهوا في الدِين وليُنذرُوا قَومَهم إذا رَجَعُوا إلِيَهِم لَعلّهم يحْذَرُونَ)[8]، ومن هنا، كان، ولايزال، الإسلام يشجع طلب العلم، ويحرض عليه، ودعا الرسول(صلى الله عليه وسلم) الناس إلى طلب العلم ولو في الصين، فاقبل الرجال والنساء على طلب العلم أينما كان، ثقة وإيماناً بان من يرد الله خيرا يفقهه في الدين. وكان أهل الأندلس ممن طلبوا العلم في الدين وفي غيره، وقد أورد المقري في كتابه (نفح الطيب) أسماء 280 شخصا من الأندلسيين، ممن رحلوا الى المشرق في طلب العلم وحده[9]. وأشار ابن خلدون إلى أهمية الرحلة في طلب العلم، واعتبره أمر لابد منه لاكتساب الفوائد والكمال عبر لقاء المشايخ ومباشرة الرّجال واخذ العلم من منابعه[10]. وتعتبر كتب الرحلات من أهم الكتب التي تشير بجلاء للجانب العلمي، فقد كشف الرحالة عن أهم المنابع التي استقوا منها علومهم، وسجلوا النشاط العلمي للعلماء الذين اخذوا عنهم والمراكز الثقافية والمدارس التي تلقوا فيها علمهم[11]. ولهذا السبب فقد اهتم علماء الأندلس كثيرا بالرّحلات العلمية والتي زادت من توثيق الصلات بين الأندلس والمشرق الإسلامي بمرور الوقت.

3- العامل السياسي:

ارتبط هذا العامل بعدة أمور منها: ما يأتي بتكليف من ولي الأمر من اجل تحقيق هدف معين أو بغرض نقل الأخبار العامة والخاصة، وهذا النوع يطلق عليه الرّحلة السفارية وقد نشط هذا النوع بين الأندلس والمشرق من أجل إيصال الرسائل والهدايا[12]. وزد على ذلك، ساهم اضطراب الظروف

السياسية، والحروب الداخلية والخارجية من أبرز الأسباب التي دفعت الأندلسيين إلى الخروج عن بلادهم، فقد عانى المجتمع الأندلسي من موجات الاضطراب والتشتت والفتن،فشكل ذلك دافعا في الخروج اضطرارا، ولكن ترك فائدة كبيرة في مجال الرحلة[13].

4- العامل الاقتصادي:

يتعلق بالجانب التجاري خاصة وأن الكثير من الرّحالة قد جمعوا بين العلم والتجارة،حيث لم يكن هناك ما يمنع أن يكون التاجر فقيها أو عالما .

5- عامل السياحة والتجوال:

ساهمت الرغبة في السياحة والتجوال بهدف التعرف على الشعوب وعادتهم في خروج العديد من الأندلسيين من بلادهم ينشدون بلدان أخرى، فهناك من كان يهوى التجوال كما هو الحال بالنسبة لأبي حامد الغرناطي، ابن جبير وابن بطوطة [14]، وعادة ما يطلق على هذه الرّحلة بالاستطلاعية.

على العموم، لابد من الإشارة هنا، إلى أن بعض الرّحلات قد تشمل جمع أشكال الرحلة وأنواعها، بمعنى أن لها أهداف متعددة، ويسمى هذا النوع بالرّحلات العامة، إلا أن ما ميز الرّحلات الأندلسية في هذه المرحلة التاريخية هو تغلب الصيغة العلمية والدينية، وقد اهتم هؤلاء الرحالة بتدوين رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها، حيث وصفوا المسالك والطرق والمزارات والأضرحة والأحداث التي صادفوها والعلماء الدين اخذوا عنهم، وكذلك المدن التي مروا بها، وسنحاول من خلال الصفحات القادمة التركيز على وصف الرّحالة الأندلسيين لمدن المشرق الإسلامي في القرنين السابع والثامن الهجريين .

ثانيا:أبرز الرّحالة الأندلسيون

برز خلال الحقبة التاريخية التي تخص الدراسة عدد من الرحالة الأندلسيين ممن انتقلوا إلى المشرق الإسلامي وزاروا مدنه وكتبوا عنها، ومن أبرزهم نذكر:

***1- ابن جبير:**

هو أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير المولود في مدينة بلنسية سنة 539هـ/ 1144م[15]، فيما اشار ابن الخطيب وهو يمد في خصاله، قائلا: "أديبا بارعا، شاعرا مجيدا... نزيه المهمة،سرى النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة (جمال خطه)"[16]. قام بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامي، وحج في كل مرة منها، وأول رحلاته إلى المشرق لأداء فريضة الحج خرج من غرناطة سنة 578هـ/ 1182م، وفي الثالثة توفي بمدينة الإسكندرية سنة 614 هـ / 1217م.وقد وصف ابن جبير المدن التي مر بها وما شاهده من الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية[17]. والرحلة الثالثة تعتبر من أحسن الرحلات التي قام بها ابن جبير، حيث انطلق من مدينة غرناطة قاصدا الحرمين الشريفين سنة 572هـ/ 1176م، واستغرقت قرابة 27 شهراً.

2- **العبدري:**

هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود أبو عبد الله الحاحي الشهير بـ(العبدري) نسبة إلى جده عبد الدار، أصله من مدينة بلنسية في الأندلس، كان يسكن بلدة حاحة بالمغرب الأقصى، وهو صاحب الرّحلة المعروفة باسمه[18]، وقد عزم على الرّحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وتحقق ذلك حينما سافر إليه برفقة ابنه سنة 688هـ/ 1289م[19]. وقد سجل في رحلته كل ما رآه في ذهابه وإيابه من معالم أثرية ومواقع، والعلماء والفقهاء الدين لقيهم أو أخذ عنهم إضافة إلى وصفه الدقيق للمدن التي مر بها[20].

والملاحظ على الرحالة العبدري انه لا يكاد يلقى ما يرضيه الا ما ندر، ويمكن تلخيص ذلك في رأيه باهل زمانه، حيث كتب يقول: "وقد تعطل في هذا العصر موسم الافاضل، وتبدد في كل قطر نظام الفضائل، وتفرق اهلها ايادي سبا، وماروا حديثا في الناس مستغربا، فعادوا اسما بلا مسمى، وحرفا ما دل على معنى، فالمحدث عنهم في مشرق أو مغرب كالمحدث عن عنقاء مغرب"[21].

3-البلوي:

أبو البقاء خالد بن عيسى البلوى المولود سنة 713 هـ/ 1313م في قنتورية من أعمال غرناطة، وكان والده قاضيا بها، وهو صاحب الرّحلة المسماة "تاج المفرق في تحلية أهل المشرق" وقد اهتم في رحلته بالوصف الجغرافي للمدن والقرى التي مر بها بصورة دقيقة وأشار إلى الأحوال الأمنية والاجتماعية والسياسية والدينية، واعتنى بتسجيل النقوش التي شاهدها على الآثار القديمة، وأسماء المدارس والمكتبات الموجودة بالمدن التي مر بها[22].

4-ابن خلدون:

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمان بن خلدون ولد بتونس سنة 732هـ/ 1332م من أسرة أندلسية هاجرت إلى تونس في أواسط القرن السابع الهجري، قام بعدة رحلات إلى الأندلس والمشرق لأداء فريضة الحج، وقد تولى عدة مناصب سياسية مهمة في مصر[23]، وقد وصف في رحلته المدن والمواقع التي مر بها وكذلك الأحوال السياسية والاجتماعية للمناطق التي زارها.

5-القلصادي:

هو علي بن محمد بن علي القريشي البسطي أبو الحسن، المولود سنة 815هـ/ 1412م بمدينة بسطة الأندلسية الواقعة في الشمال الشرقي لغرناطة، تلقى دروسه على علماء الأندلس[24]. وفي سنة 840هـ بدأ رحلته العلمية حيث

اتجه إلى تلمسان وأخذ عن علمائها ثم انتقل إلى تونس ومنها إلى المشرق، وقد وصف في هده الرّحلة الأماكن التي زارها والعلماء الدين أخد عنهم[25].

ثالثا: بعض مدن المشرق في كتابات الرّحالة الأندلسيين

بعد الإشارة إلى أبرز الرحالة الأندلسيين ممن جالوا مدن المشرق الإسلامي، نتوقف الآن بالإشارة إلى أبرز المدن المشرقية التي تناولها الرحالة الأندلسيين بالوصف، ومنها:

1- المدن المصرية:

تعتبر المدن المصرية بمثابة البوابة التي يلج من خلالها أهل الأندلس منطقة المشرق الإسلامي، حيث أقاموا فيها ودرسوا في بعض منها، وتأتي في مقدمتها:

- الإسكندرية:

لقد حظيت الإسكندرية باهتمام جل الرّحالة باعتبارها المدينة الأولى التي يصلها القادمين من المغرب الإسلامي، ومن خلال ملاحظاتنا لوصف هذه المدينة نجد أن هناك تشابه كبير بين معظم الرّحالة، اذ يذكر بن جبير أنها المدينة ذات مسالك الواسعة، إضافة إلى كثرة مدارسها،مشيرا إلى أن ذلك مرتبط باهتمام السلاطين الذين اعتنوا ببناء المدارس في إطار اهتمامهم بالعلم والعلماء، كما أشار إلى كثرة المساجد فيها، فقد اعتبرها من أكثر بلاد الله مساجداً، كما تحدث عن المنارة البحرية[26] الموجودة فيها، والتي اعتبرها من بين المعالم التي تميز المدينة، وأشار إلى إن ضوئها كان يرى من على بعد 70 ميلا بحريا[27].

أما الرحالة العبدري فقد وصفها بأنها بلد الأشراف وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة، وأنها مدينة مليحة البنيان صحيحة الأركان[28]، كما تناول في هذا

الوصف ما تتمتع به المدينة من أبواب ذات الحسن و الإتقان الكبير دون أن ينسى الحديث عن عمود السواري[29] ومنارة الإسكندرية وما تحتويه من بيوت الخاصة بالحراسة[30]، إلا أن الذي رفضه العبدري، واعتبره من الأمور المستغربة وأنكره باقي الرّحالة، هي ظاهرة تفتيش الحجاج القادمين من أرض المغرب، واعتبر ذلك المشهد دليل على قلة دينهم، بسبب ما يعترض له الحجاج من سوء معاملة، ويجرعونه من مهانة،"ويبحثون عما بأيديهم من مال ويأمرون بتفتيش الرّجال والنساء"[31]. أما الرحالة القلصادي فقد وصفها بأنها من أحسن البلاد ترتيبا وبناءاً، وأشار إلى إن جدرانها مبنية بالحجر الأبيض المنجور[32]، إلا أن هذه المدينة حسب رأيه لا تساعد على الاستقرار حيث يشعر الإنسان بها بالضيق إذا بقي بها بعض الوقت بسبب مائها، كما تطرق القلصادي إلى نفس العجائب التي تحدث عنها ابن جبير والعبدري مثل: العمود المرتفع في السماء الذي يقع على قاعدة مربعة [33]، وهو العمود السواري الذي ذكره باقي الرّحالة كما ذكره السيوطي[34]، أما باقي الرّحالة فقد تحدثوا عن الإسكندرية بنوع من الاختصار.

- **القاهرة:**

لقد نالت مدينة القاهرة بدورها قسطاً كبير من اهتمام الرّحالة الأندلسيين نظرا لما كانت تتمتع به من مكانة علمية كبيرة لوجود العديد من المؤسسات العلمية فضلا عن وجود الجامع الأزهر والعديد من المراكز الدينية الأخرى، وهنا نستعين بما وصفها ابن جبير الذي يراها أنها مدينة واسعة يقصدها العلماء والفقهاء، كما أنها تمتاز بكثرة المساجد والأسواق التجارية. ومن المعالم التي أشار إليها، قلعة القاهرة وهو حصن يتخذه السلطان موضعا لسكناه[35]، كما أشار ابن جبير إلى معالم أخرى من معالم القاهرة، مثل: مسجد ابن طولون وهو من المساجد العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان جعله

السلطان مأوى للغرباء، أما القرافة فهي كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوي إليها الغرباء والعلماء والفقراء، وقد اتخذها الخلفاء والولاة الفاطميون قبورا لموتاهم ورعيتهم، فبنوا الترب والخوانق والأسواق والطواحين والحمامات[36]. كما تطرق إلى قبور الصحابة وأهل البيت، وكذلك قدم وصفا متكاملا لضريح الإمام الشافعي (رضي الله عنه) والمدرسة الناصرية التي أعجب بسعتها وكبير خزانتها وقيمة كتبها التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي[37]، إضافة إلى العلماء والزهاد وخاصة الذين قدموا من الأندلس أو المغرب،دون أن ينسى القلعة ومارستانات القاهرة، لاسيما مارستان المنصوري وأشار الى القناطر التي بناها صلاح الدين[38]. أما الرحالة العبدري فلم يولي أهمية كبيرة لوصف القاهرة، حيث أشار إلى بعض المعالم التي تتواجد فيها من قبور العلماء والصلحاء ،خاصة في القرافة مثل مشهد رأس الإمام حسين، والذي يحتوي على رباط في غاية الإبداع وأن على أبوابه حلق الفضة، إضافة إلى مشهد الأمام الشافعي[39] .أما الرّحالة أبو البقاء البلوي فلم يختلف عن سابقه في وصف القاهرة وما تحتويه من مشاهد مهمة من كثرة المساجد والمباني والحمامات، منها المشهد الحسيني والآثار القديمة وذكر أسماء المدارس والمكاتبات ومقام الإمام الشافعي، والذي وصفه: "هو مسجد عظيم القدر له أربعة أبواب هائلة و فيه قبة فائقة الحسن نادرة الاختراع"[40] .

أما ابن خلدون فقد أعطى لهذه المدينة قدر عظيم عندما وصفها بأنها حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الدر من البشر، وإيوان الإسلام وكرسي الملك، كما أنها تزخر بالمساجد والخوانق والقصور، أسواقها تزخر بالنعم، ثم يشير إلى الجامع الأزهر عندما جلس فيه للتدريس، كما تحدث عن مدارسها التي درّس بها مثل المدرسة القمحية[41]. ولم يختلف الرحالة القلصادي عن ابن خلدون في وصف القاهرة التي دخلها في شهر اوت سنة

1447م حيث وصفها بكثرة الخلق وازدحام السكان، كما يتحدث عن جامع الأزهر ومقام الإمام الشافعي ومقام السيدة نفيسة[42]، ثم يشير إلى العلماء والفضلاء من أهل المغرب الذي لقيهم في القاهرة وعلماء مصر الذي أخذ عنهم[43].

2- مدن بلاد الشام:

كان منطقة بلاد الشام من المناطق التي وصل إليها الرحالة الأندلسيين، وكتبوا عنها بشكل عميق. ومن أبرز تلك المدن:

- مدينة دمشق:

كانت مدينة دمشق من بين المدن التي عكف الرحالة الأندلسيين على زيارتها والإقامة بها قدر المستطاع. إذ وصفها ابن جبير بانها جنة المشرق وعروس المدن لما تمتاز به من كثرة المياه والبساتين والحدائق، دون أن ينسى الجامع الأموي حيث يقول:" إن له ثلاثة صوامع وثلاث قباب"[44]، على أن وصفه للجامع الأموي الكبير في دمشق، يعتبر أهم مرجع في تاريخ هذا الجامع،من الناحيتين التاريخية والهندسية ، كما وصف ساعته الدقاقة .

كما وصف ابن خلدون مدينة دمشق بكثرة المدارس والخوانق إلا انه لم يسجل ملاحظاته كرحّالة عند زيارته لفلسطين أو دمشق إلا مقابلته لتيمورلنك من أجل التفاوض[45].

- مدينة حلب:

مدينة حلب خصها ابن جبير بوصف دقيق، فهي مدينة قديمة لها قلعة شهيرة الامتناع كانت ربوة يأوي إليها إبراهيم الخليل[46]، أما المدينة فهي واسعة الأسواق أما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، وبها جامع من أحسن الجوامع تتصل به مدرسة للحنفية[47].

- **مدينة حماة:**

وصف ابن جبير مدينة حماة وتغنى بخصالها، فهو يقول أنها مدينة شهيرة في البلدان قديمة الصحبة للزمان، ديارها مركومة يقع في شرقها نهرا كبيرا، وعلى شطه جامع صغير، يحيط بها سور من ثلاثة جوانب والأخر متصل بالنهر[48].

- **مدينة حمص:**

كما تطرق ابن جبير إلى مدينة حمص، واشار اليها على انها مدينة فسيحة الساحة،مستطيلة الشكل، موضوعة في بسيط من الأرض، لا ماء ولا شجر ولا ظل ولاثمر،يجلب لها الماء من نهر العاصي، أهلها موصوفون بالنجدة والتّمرس بالعدو وفي مقبرتها قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه وابنه عبد الرحمان[49].

- **مدينة القدس:**

حظيت مدينة القدس باهتمام خاص من قبل الرّحالة الاندلسيين الذين زاروا بلاد الشام نظرا لمكانتها الدينية، حيث يوجد المسجد الأقصى اولى القبلتين وثالث الحرمين، لذلك كان على كل أندلسي يتوجه إلى المشرق ان يزور بيت المقدس، كما هو الحال بالنسبة لابن خلدون الذي زار المسجد الأقصى وقبر ابراهيم الخليل وأثار بيت لحم[50].

أما العبدري فيصف القدس زادها الله تعظيما أن بها رباطان متقاربان في غاية الإتقان، أما المسجد الأقصى فهو من المساجد الرائعة العجيبة المنشرحة الفسيحة وبه قبة الصخرة وهي من أعجب المباني في الأرض، ثم زار كنيسة القيامة [51]، إلا أن العبدري الذي ينتقد قلة العلماء في هذه المدينة حيث يقول: " أنه لم يرى في هدا البلد من هو أهل لأخذ العلم عنه"[52]. كما زار البلوي القدس ووصفها بأنها بلدة الأفق المميز ونجمة سامية الارتفاع كثيرة

المياه، ثم يتحدث عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة الكريمة وما تتمتع به من مناظر وآثار، وما لهذه المدينة من مكانة خاصة لدى المسلمين[53].

3- مدن الحجاز:

لقد حظيت مدن الحجاز بوصف دقيق، لاسيما المدن ذات الصبغة الدينية، والتي كان لابد على أي رحّالة اندلسي أن يمر بها، واقصد بها جدة ومكة المكّرمة والمدينة المنّورة.

- مدينة جدة:

وصف ابن جبير مدينة جدة على أنها قرية على ساحل البحر فيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وبها أثار قديمة، وبها أيضا قبة عتيقة وهي منزل حواء أم البشر[54]، كما يصف مسجد عمر بن الخطاب وكذلك الحياة الاجتماعية في المدينة، أما القلصادي فيتحدث عن زيارة مقام أمنا حواء عندما حطّ الرّحال بجدة[55].

- مدينة مكة:

أما مدينة مكة فقد نالت اهتمام كبير من طرف الرّحالة باعتبارها المقصد الأساسي حيث تمثل الركن الأساسي لأداء فريضة الحج، فابن جبير يقول عنها: إنها بلدة وضعها الله بين جبال محدقة بها وهي بطن واد مقدس، لها ثلاثة أبواب[56]، ويشير بعدها إلى المقبرة المدفون بها الصحابة، وكذلك الأماكن المباركة مثل دار خديجة رضي الله عنها وقبة الوحي[57]. [41] ولم يبتعد القلصادي عن وصف ابن جبير لمعظم الأماكن التي زارها في مكة مثل جبل ثور وغار حراء والذي يقول عنه، مثلث طوله تسعة أشبار وعرضه الستة أشبار[58]، وهي نفس الأماكن التي تحدث عنها باقي الرّحالة مثل العبدري والبلوى وابن خلدون أثناء أدائهم لفريضة الحج.

- **المدينة المنورة:**

وما ينطبق على مكة ينطبق كذلك على المدينة المنورة لما تتمتع به من مكانة خاصة في قلب كل مسلم، لذلك كان على كل رحّالة زيارة هذه المدينة وخاصة الحرم النبوي الشريف، الذي يصفه ابن جبير بنوع من الدّقة فشكله مستطيل، أما الرّوضة المقدسة فشكلها عجيب لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله[59]، كما تناول الرّحالة بالوصف مقبرة الشهداء بالبقيع وقبر سيدنا حمزة رضي الله عنه وباقي الصحابة، ومقام العباس والحسين والإمام مالك رضي الله عنهم[60].

4- مدن العراق:

كما ورد ذكر بعض مدن العراق في كتابات الرحالة الأندلسيين وان كانت قليلة ومتفرقة. إذ زار ابن جبير مدينة بغداد وقدم وصفاً لبعض معالمها، وكان قاسيا على أهلها حينما وصفهم بأنّهم يتعاملون بالنّفاق وتكبّر وقد استثنى منهم العلماء والفقهاء، وأشار إلى كثرة مدارسها ومساجدها وكثرة الأوقاف فيها. اما مدينة تكريت فقد وصفها ابن جبير بالمدينة الكبيرة الواسعة الأرجاء فسيحة، وكثيرة الأسواق والمساجد لها قلعة حصينة أهلها أحسن أخلاقا وقسطا في الموازين من أهل بغداد. اما مدينة الموصل التي زارها ابن جبير فقد اعتبرها مدينة عتيقة حصينة لها قلعة عظيمة، وأسواق كثيرة وللمدينة جامعان أحدهما جديد والأخر من عهد بني أمية[61].

الخاتمة:

خلاصة القول، ومن خلال دراستنا لهذا الموضوع، نستطيع القول إن الرّحلات واحدة من أهم المصادر التاريخية التي يمكن أن نعول عليها، وان كتابات الرحالة الأندلسيين نجحت في تقديم صور واضحة عن مدن بلاد

المشرق الإسلامي، إذ تطرقت إلى الحياة الاجتماعية والثقافية وما تميزت به تلك المدن من آثار وأماكن مقدسة. إذ خلّف لنا هؤلاء ثروة كبيرة هي خلاصة مشاهداتهم وملاحظاتهم وتجاربهم التي اكتسبوها في تلك المدن التي مروا بها .ولعبت الرحلة دورها في تراجم الأعلام الذين التقى بهم الرحَّالة، وشاهدوا من خلاله ظروف حياتهم، مما جعل لهذه التراجم خصوصية تختلف عما تضمنته كتب التراجم والطبقات؛ إذ إن الرحَّالة يستقي معلوماته من الاتصال المباشر بالمترجَم، ولم تكن الترجمة مقتصرة على الجانب العلمي، وإنما يتعمَّق الشخصية، فيستفاد منه في جوانب عقلية ونفسية.كان خروج الرحَّالة الأندلسيين أساسًا للحج والزيارة وطلب العلم؛ فلمعت أسماؤهم، وذاع صيتهم بما نالوه من علم هناك،إضافة إلى كتابتهم لرحلاتهم التي توضح نظرتهم للأمور وتحليلها، وحكمهم على الأحداث التي نقلوها بكل أمانة وصدق؛ لبعدهم عن التميز لجانب دون آخر.

الهوامش:

1- نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2008، ط1، ص 21.

2- عواطف بنت محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري: دراسة تحليلية نقدية مقارنة، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2008، ص 18-20.

3- نوال عبد الرحمن شوابكة، المرجع نفسه، ص 21.

4- سورة آل عمران، الآية 97.

5- سورة الحج، الآية 27.

6- نوال عبد الرحمن شوابكة، المرجع نفسه، ص 21 و30.

7- لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، الجزء الثاني، تحقيق: محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة، 1955، ص 236.

8- سورة التوبة: الآية 123.

9- نقلا عن: فؤاد قنديل، ادب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002، ط2، ص 31-32.

10- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2001، ص 744.

11- عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص 25.

12- محمد الكحلاوي، آثار مصر الإسلامية في كتابات الرّحالة المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1995، ط 1، ص 16.

13- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، بلا تاريخ نشر، ط1، ص 32.

14- نواف عبد العزيز، رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2008، ط1، ص 49.

15- أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت ج 2 ص 381

16- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 231.

17- المصدر نفسه، ص 231.

18- العبدري، الرّحلة المغربية، تحقيق: سعد بوفلاقة، بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007، ط1، ص7؛ عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بلا معلومات أخرى، ص 225.

19- زكي محمد حسين: الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص132.

20- محمد عيسى الحريري، علماء الأندلس في مصر، مقال منشور في: المجلة العربية للتوثيق، العدد 4، السنة 1986، تونس، ص54.

21- العبدري، المصدر السابق، ص 35-36.

22- لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ص324؛ ابن القاضي أبو العباس، درة الحجال في أسماء الرجال، الجزء الأول، تحقيق: محمد الأحمدي، دار التراث القاهرة، 1970، ط1، ص141.

23- ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من دهب، الجزء التاسع، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط. دار ابن كثير، بيروت،1993م، ط1، ص 114؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص5.

24- خير الدين الزركلي، الأعلام، الجزء الخامس، دار العلم للملايين، بيروت، 2007، ط17، ص163؛ ابن مريم، البستان في دكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 2007، ص141.

25- القلصادي، ابو الحسن، رحلة القلصادي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، بلا معلومات أخرى، ص87.

26- منارة الإسكندرية (فنار الإسكندرية) من عجائب الدنيا السبع وكانت تسمى فاروس (Pharos)، موقعها كان على طرف شبه جزيرة فاروس وهي المكان الحالي لقلعة قايتباي في مدينة الإسكندرية في مصر. تعتبر أول منارة في العالم أقامها سوسترات في عهد بطليموس الثاني عام 270 ق.م مكونة من أربعة طوابق وترتفع 120 مترا يجعلها أعلى بنايةً في عصرها ودمرت في زلزال عام 1323 .وقد بناها المعماري الإغريقي سوستراتوس، كان الغرض من بنائها هو هداية البحارة عند سواحل مصر المنخفضة فقد كان النور المنبعث من النار الموضوعة في قاعدة المنارة ينعكس من المرايا النحاسية كضوء يتجه إلى المناطق المحيطة بالمنارة. ينظر: *http://al-hakawati.la.utexas.edu/2012/11/26/.*

27- ابن جبير، رحلة بن جبير، دار صادر، بيروت، بلا معلومات أخرى، ص47.

28- العبدري، المصدر السابق، ص139.

29- يعتبر عمود السواري من أشهر المعالم الأثرية في الإسكندرية .أقيم فوق تل باب سدرة بين منطقة مدافن المسلمين الحالية والمعروفة باسم مدافن العمود وبين هضبة كوم الشقافة الأثرية. ويصل طوله إلى حوالي 27 مترا ومصنوع من حجر الغرانيت الأحمر. أقيم تخليدا للإمبراطور دقلديانوس في القرن الثالث الميلادي .وهو آخر الآثار الباقية من معبد السيرابيوم الذي

أقامه بوستوموس .ويعتبر أعلى نصب تذكاري في العالم .لم يتم تحديد تاريخ إنشاء هذا العمود على وجه الدقة لكنه يعود للعصر الروماني، وقيل أن هذا العمود أهدي للمسيحية بعد انتصارها في الإسكندرية علي مريام في معركة القميص. ينظر:

عمود السواريhttps://ar.wikipedia.org/wiki

30- العبدري، المصدر السابق، ص 141.

31- المصدر نفسه، ص 143.

32- القلصادي، المصدر السابق، ص83.

33- المصدر نفسه، ص125.

34- السيوطي، جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، الجزء الاول، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 1968، ط1، ص87.

35- ابن جبير، المصدر السابق، ص25.

36- المصدر نفسه، ص21.

37- المصدر نفسه، ص33.

38- المصدر نفسه، ص51-52.

39- العبدري، المصدر السابق، ص149، نواف عبد العزيز، المرجع السابق، ص643.

40- نواف عبد العزيز، المرجع نفسه، ص641.

41- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص248.

42- السيوطي، حسن المحاصرة، المصدر السابق، ج1، ص511.

43- القلصادي: المصدر السابق ص129.

44- ابن جبير، المصدر السابق، ص204.

45- ابن خلدون: الرّحلة المصدر السابق ص114

46- ابن جبير، المصدر السابق، ص226.

47- المصدر نفسه، ص227.

48- المصدر نفسه، ص230.

49- ابن جبير: نفسه ص232.
50- ابن خلدون: الرّحلة المصدر السابق ص113.
51- العبدري: المصدر السابق ص289.
52- نواف عبد العزيز: المرجع السابق ص588.
53- ابن جبير: المصدر السابق ص53.
54- القلصادي، المصدر السابق ص131.
55- ابن جبير، المصدر نفسه ص87.
56- المصدر نفسه، ص 92.
57- القلصادي، ص 136.
58- ابن جبير، المصدر نفسه، ص 168.
59- القلصادي، المصدر نفسه، ص 137؛ ابن جبير المصدر السابق، ص 183.
60- ابن جبير، المصدر السابق، ص 194.
61- المصدر نفسه، ص208.
62- المصدر نفسه، ص 210.